اللقاء

قصة بقلم بيار دومينيك

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

نزلت ريجي داغرنج بتأن بولفار سان ميشال . إنها في باريس منذ الصباح ، وقد عادت من مقاطعة ريفية ألقاها فيها في الماضي زواج ثري . لقد قالت إنه لم يعد باستطاعتها أن تطيق قريتها . وإذ غدت ريفية إثر يأس ، فقد قررت أن تدفن نفسها هناك يوم قال لها الشاب الذي أحبها :

– انني ذاهب إلى أميركا ياريجي !

فأجابته : أهكذا . ! بين ليلة وضحاها ؟

وشعرت ببرودة مثلوجة من رأسها إلى قدميها ، بينما ظل قلبها يخفق بيأس .

ثم أردف بصوت هادىء : « أتعلمين ، ان من الخير أن يسرع المرء في القيام بهذه الخطوات ؟ » .

ثم أحاطها من كتفها وقال :

– ليس لك أن تخافي يا عزيزتي . فان عرابي هو الذي يطلبني .

– عرابه ؟ . إنه لم يسبق له قط أن حدثها عن هذا العراب ! . .

وأضاف بعد ذلك : أجل ، إنه يعرض علي مركزاً حسناً .

لقد حدث ذلك في هذه الساحة بالذات . وتوقفت السيدة داغرنج . لقد تبدلت الأمور قليلا : فالجموع المحتشدة التي يطغى عليها الطلبة هي نفسها كالماضي تملأ الرصيف والفتيات يتمتعن بحظ وافر من الحرية ، واختلاط الفرنسيين بطوال الزنوج وصغار الصفر أكثر من اختلاطهم بالبلقانيين والدانوبيين طابعاً لغرابة عجيبة غير منتظرة . وبالرغم من أن السيدة دغرانج تحمل على كتفيها خمسين عاماً ، وان وجهها منبسط الخطوط فانها لا تشعر بعد برعشة في تلك الرغبات التي سحرت شبابها ، وان بوسعها في هذه الزاوية من الجادة أن تحلم في حرية بالماضي من غير أن تضايقها نظرة طمع تتجاوز حدودها من الإلحاح .

وبعد هذا الحوار الحاسم مع روبير ، كانت ليلة وداع كئيبة ، وفي اليوم التالي ، حلت الوحدة فجأة ! ولم تكن تفكر انها تحبه بهذه القوة ، هذا الساحر المجنون ؛ ولم تقدر حبه إلا عند رحيله ، فقد قاسته بهذه الوحدة الطويلة التي وجدت نفسها فيها . ومنذ ذلك الحين لم يبق لشيء قيمة في نفسها ، فمضت تسير كالآلة من غير أن تشعر بمتعة الحياة التي كانت حتى الأمس جميلة ريقة . ولم تكن باريس بعده سوى صحراء حولها ! ولم يبق لها من عمل سوى انتظار الرسائل . ولقد أتت هذه الرسائل متحمسة ، ممتلئة بتفاصيل ساذجة ، طافحة بسعادة لم يكن الرجل ليخفيها . ثم أتى يوم حل فيه صمت لم يسبقه ظل من برودة من شأنها أن تنبه المهجورة . وكان صمتاً كهذا الذي يغمر فيه المرء كما ينغمر في أعماق البحر :

وإذاً ، فقد أتى ذلك الزواج في الريف لينقذها ! . وهل تراه أنقذها ؟ . وكان صمت قريتها بمثابة معطف من الصوف يحميها . لقد عادت هناك لتعيش على نغم أهدأ ولكن مع اندفاع أسوان في قرارة النفس لمعرفة مصير روبير . غير أنها لم تفعل من أجل ذلك شيئاً . بل ظلت كسولة في مكانها لا تبرحه بعيدة عن باريس تلك المخيفة !

ثم كان موت زوجها ، وحريتها ، وحياتها في خفض من العيش ، وذلك ما أعادها ، هذا المساء ، إلى هذا الرصيف الذي كانت قد قررت أن لا تطأه أبداً . ولكن ألم يتغير كل شيء ، وقد عرفت الآن ان انتظارها لن يجدي بعد أن استغرقت أميركا إلى الأبد الرجل الذي لا بد أن يكون سعيداً في مكان لا تتصوره مع امرأة وأولاد ؟ لقد كان يحق لها أن ترى من جديد ، من غير خطر ، أدنى خطر ، إطار حبها ، والبيوت ، وعهد تفتح الأوراق في حديقة اللوكسبور ؛ وأن تتبع مرة أخرى هذا المنحدر السعيد نحو السين ، وأن تنزل من جديد البلفار ما دامت قد جرؤت على العودة ، لتملأ رئتيها بهذا الهواء المسكر الذي غذى صباها ، صباها هي وروبير ، ثم لترجع إلى الريف مع هذه الذكريات المجددة .

* *

لقد حوى بلفار سان ميشال جميع الطبقات ، الفقراء والأغنياء ، التلامذة أولاد المليارديرِ والأمراء ، ولاقطي أعقاب السكاير . وفي زاوية البلفار والساحة وقف رجل هزيل الوجه ، مجوف الخدين ، ممتلىء تجاعيد . وكان في فمه الكبير ، الخالي من الأسنان والرقيق الشفتين ، وفي نظرته المرتعشة ، الغامضة ما ينطق قائلا : « ماذا تريدين ، تلك هي الحياة ، ولا حيلة لنا بها ! وكان المعطف يبدو متماسكاً ولكن لا بد أن القميص قد عانى طويلا فقنعه صاحبه بوشاح قديم . وكانت قبعته قذرة تغطي جانباً من رأس كان في الماضي جميلا . وكانت نظرة الرجل مبهمة ، نظرة أولئك الذين لا ينتظرون من الناس شيئاً ، والذين لا يبدو لهم الجمع إلا موجة لا يسمعون حتى هديرها !

وأحست مدام دغرانج بصدمة خفيفة ، خفيفة جداً ، كتلك التي تعترينا عندما نحسب اننا أمام وجه نعرفه . واستيقظ فيها حب الاستطلاع واعتراها الضيق الذي يعقبه . ثم تابعت طريقها مستغرقة من جديد في ذكرياتها ، مفكرة بروبير إذ كان يتجول معها في ممرات حديقة «كلوني» . وأخذها الشوق في أن ترى من جديد هذا الوجه الغريب ، ولكنه كان شوقاً ضيق عليه حس اللياقة . ولقد قالت في نفسها : « ربما أزعجته وأثارت خجله . » وبعد عشرين خطوة توقفت ؛ وهي تعتقد أنه بعيد عنها ، ولكنه تبعها ، وانتصب واقفاً وراءها فلم تتمالك من الصراخ .

وتكشف الرجل أمام ناظريها . ولكن جبينه المجعد ، وصدغيه الأجوفين كوجنتيه وثنية الفم المكدود لم تنم للسيدة دغرانج عن شيء . ولكن كانت هناك العينان اللتان استعادتا فجأة بريقاً حاداً ونظرتها الغريبة . وكانت هناك أيضاً البسمة التي غيرت فجأة مظهر الفم وكونته من جديد بحيث امحت عنه تلك المسحة المكدودة وحل محلها مرح صامت ، في حين كانت العينان تنطقان بالقلق

– أيتها السيدة ، أيتها الآنسة ، لست أدري ، ريجي ، أليس كذلك ، ريجي .(وكان يفتش عن اسم عائلتها ، ولكنه لم يجده . لقد كانت عنده ريجي ، لا أكثر . لم تكن أبداً أكثر من ذلك . (، لقد نسيت اسم عائلتك ، قال لها ذلك باضطراب . إن التعب . . .

ثم أمر يده على جبينه بحركة مجهدة ، فامتقعت ريجي . لقد عرفته الآن . إنه هو روبير ، ولكن مقنعاً ، روبير الأمس كما لو انه أراد أن يمثل أمامها دور العجوز ليخيفها بهذا القناع البغيض . وكانت حركتها الأولى رفضاً ، رفضاً حاسماً مطلقاً . ان عقلها يمكنه أن يعرف الرجل وأن يسميه . ولكن المشهد كان في شدة الفظاعة بحيث لم تقو إحساساتها أن ترضخ لهذا اللقاء .

وقالت : لا . . لا . .

ثم أضافت : « انني لا أعرفك يا سيدي » .

لقد لفظت هذه الكلمات من غير أن تعيها . وبدا لها صوتها هي ، أجنبياً عنها . فسارعت لتتخلص من هذه الرؤية ، فاستدارت على عقبيها ، وصعدت البلفار بخطوات أرادتها متزنة ، وهي تنظر إلى البعيد من غير أن ترى شيئاً وقلبها البائس يخفق بشدة بين جوانحها .

* *

ومشت عشر خطوات . وعند العاشرة ، التفتت إلى الوراء مرة أخرى . وقالت في نفسها : « سأذهب فأراه واقفاً على حافة الرصيف يتبعني بعينيه . سأذهب إليه ، ربما .. بل دون شك ، .. انه بحاجة .. ؟

ثم أحست بشفقة كبيرة . لقد أدهشها هذا الانهيار في باديء الأمر حتى أخافها ، ولهذا فرت ، لأنها لم ترد أن تقبل هذا الشيء الفظيع . لكأنها رأت وجهاً منحلا . على أن هذا القناع الجديد لم يستطع أن يمحو الصورة القديمة ، ولذا أنكرته لأول وهلة . أما الآن ، فهو بالعكس ، ذلك الوجه القديم الذي طالما لامسته في الوحدة والذي تنمحي ملامحه ، بل تتبدل ، بينما يتأكد وجه المتشرد . وإذاً فقد انفتلت ولم تعد ترى شيئاً : لقد ضاع الرجل في الجموع . وهبط الليل . فتابعت السيدة دغرانج سيرها نحو النهر بخطوات سريعة .

انها تمشي بسرعة ، يدفعها الندم ويشغلها . أتراه قد قطع الجسر ؟ أم تراه توجه إلى شماله ، أم إلى اليمين ؟ لا ! ان هذا العجوز المكدود لم يجهد نفسه في عبور الطريق ؛ ولا بد انه ماش الرصيف بكل بساطة . ثم تابعت سيرها ، صاعدة السان ، فبلغت جسر نوتردام . فاذا صناديق بائعي الكتب قد أغلقت وخيل إليها أنها ترى الهارب من بعيد . وحثت الخطى . ولم تعد ترى شيئاً ، حتى ولا هذه الكتلة الكتدرائية الضخمة التي بدأت تسد الأفق من الشمال . لا لم تعد ترى شيئاً ، سوى هذا الشبح الصغير الذي تخاف أن تفقده .

وتحولت قدماها إلى رصاص . أتلحق به ؟ وماذا عساها تقول له ؟ وفجأة غاب عن ناظرها الرجل فأحست لهذا برضى عميق أول الأمر . انها بذلك لن يكون لها أن تتكلم وأن تسأل ، وأن تتأمل خاصة وجه الفقر هذا الذي اجهدته بصورة مستمرة ثلاثون سنة . وفجأة وجدت نفسها قرب الدرج المواجه تقريباً لنوتردام والذي ينفتح صوب الشمال . وبدا لها هذا السلم وكأنه الهاوية .

أتراه هبط من هنا ؟ ولكن إلى أين ، يا إلهي ! وتذكرت نزهات الماضي ، وقد أخذت بذراع روبير وأخذ بذراعها هنا ، على ضفة النهر .

أما اليوم ، فما عساه جاء يبحث هنا ؟ قبة جسر يأوي إليها ؟ أو ... ونظرت إلى السلم برعب . أمن الممكن أن يكون رجل الأمس هو الذي هبطه ؛ الرجل الذي أحاطته بذراعيها ، حبيب أيامها الماضية ؟ وانحنت . فبدا لها الرصيف خالياً . ومع ذلك فقد بدا لها من جهة اليمين شبحان أسودان قصيران ، هما شبحا متشردين ، جلسا على الأرض ، وأسندا ظهرهما إلى الحائط . وكان المشاة والسيارات يروحون ويجيئون على الرصيف والجسر دون أن يهتموا بما يجري في هذه الزاوية من الرصيف . لكأنها عالمان يعلو احدهما الآخر : الأرض والجحيم . ثم بدا لها شبح ينزلق تحت الجسر . ايكون هو ؟ وهبطت درجتين لتراقبه ولكنها لم تر بعد شيئاً : لا ، لاشيء البتة . ولكنها سمعت صوتاً ، هذا الصوت الكئيب الذي يحدثه وقوع جسم في الماء . وعلى ضوء القمر رأت دائرتين او ثلاث دوائر متداخلة على صفحة الماء . وما لبث الصوت أن ضاع في صخب المدينة . وتضاءلت تجعدات الدوائر على الماء الأسود وهي تتسع . اما المتشردون على الضفة تحت ، فلم يروا شيئاً ولم يسمعوا شيئاً . فارسلت هي صرخة هائلة . وهبطت السلم على عجل .

* * *

وصاح أحدهم ! امرأة تريد أن تقذف بنفسها في الماء .

وكانت السيدة دغرانج تعدو على الجسر بعد أن هبطت . وأذ بيد شرطي تأخذها من ذراعها ، واذ بصوت ملح يقول :

— هيا ، هيا ، يا سيدتي ، حذار من ارتكاب حماقة ما .

إنه شرطي يمسك بها . وقد بدا هادئ الوجه رزيناً ، رقيق النظرات واردف قائلا :

— على رسلك . فهذا الأمر لا يعمل .

ولكنها صاحت : ماذا ، ماذا ؟ لقد رمى بنفسه في الماء الم تره ؟

فتركها وهو يسألها :

— ومن يكون .

— إنه روبير !

وانخرطت باكية . ولم يعد هناك الا امرأة ارهق الألم كتفيها فلم تفكر في اخفائه ، واخذت ترسل الكلمات متقطعة لا رابط بينها :

— كان علي ، لم أفكر مطلقاً .. كان هو .. يا الهي .. آه .. أن اتركه يذهب ، أن اتركه يهبط ، انها غلطتي ..

وأخذوا يراقبونها باطراف الأعين . واخذ الشرطة ورجال الأطفاء يبحثون في النهر . وذات لحظة . رفعت السيدة دغرانج عينيها . كان الجسر غاصاً بالناس . فخجلت وخبأت وجهها بيديها . فكان بعضهم يشير اليها بالأصابع ، ويروون قصة :

— انها كانت تعدو وراءه ، ولكنها لم تستطع أن تردعه عن قذف نفسه في الماء .

صدر

الجزء الثاني

من

الروم

في سياستهم

وحضارتهم

ودينهم

وثقافتهم

وصلاتهم بالمغرب

عن دار المكشوف ، بيروت

- انها أنيقة الملبس .

– وشابة أيضاً . لابد انها قصة حب .

ثم كان مزاح وضحك ، واطراف حديث متلهف حول اخراج الغريق .

وبعد ساعة تقريباً ، اخرجوا الرجل برؤوس القصبات . فاقتربت السيدة دغرانج وانحنى رجال الاطفاء حول ذراعيه ورجيله ولسانه .

وتدخل الشرطي قائلا :

– اذهبي يا سيدتي ، يجب الا تنظري .. فان هذا غير جميل .

ولكنها أجابته : دعني يا سيدي ، دعني ارى . واتكأت على ذراعه .

وقال أحدهم وهو ينهض ، ولعله كان طبيباً : لقد مات .

وانسكب شعاع القمر على الميت الذي كان يبدو سعيداً . وبدا وشعره لاصق بجبينه وكأنه قد صغر ثلاثين سنة . فقد كانت عيناه نصف المغلقتين تبدوان وكأنهما تتطلعان الى الأحياء . وفقد فمه ثنيته المتعبة . فارتسمت عليه بسمة كتلك التي ارتسمت منذ حين وهو في البلفار . وركعت السيدة دغرانج ، وأبعدت الشعر ، فذكرتها فجأةهذه الحركة بالماضي. ولكن برودة الجبهة المثلوجة سرت في جسمها فغامت نظراتها . وأختفى كل شيء فجأة . والقى شخص غطاء جلدياً ، وأنهض المرأة التي لم تكن تتماسك على ساقيها المصطكتين . وسألوها عن اسم الرجل ، والواقع أنه كان يحمل اوراقه، وعما اذا كانت تعرفه: لقد عرفته في الماضي . وسألوها عن اسمها هي ، فادلت به مجهدة ، وهي ترسل نظرة كلب ضرب فأخذ يسترحم جلاديه أن يتركوه . ثم قادها الشرطي الى مقهى قريب جداً . فشكرته بابتسامة . والفت نفسها وحيدة كما كانت منذ لحظات في أعلى بولفار سان ميشال .

ومضت الدقائق مثقلة بصور كانت تستدعيها الواحدة إثر الأخرى ، والتي كانت تتزاحم احياناً وتختلط . وتذكرت السيدة دغرانج فجأة أنها وروبير قد تواعدا مرة او مرتين في هذا المقهى حيث هي الآن ، وخيل اليها انها تعرف طاولة المرمر ، وغطاء المقعد المخملي . الا تراها جالسة حتى على المقعد الذي جلست عليه في الماضي ؟ واغمضت عينيها ، وأخذت تسعى ، مستعينةبالرائحة وباصوات الكؤوس والزجاجات المألوفة ، لكي تتذكر نفسها صبية ، تنتظر روبير هنا ، وهي تشعل سيجارتها . ان صوته ليكاد الآن ينفضها من مكانها . ليتها لم تتركه هكذا . لقد فقدت الحي ، واصبح مكانها قرب الميت . أنها حركة جاءت متأخرة قليلا ، ولكن المفاجأة هي التي افسدت كل شيء .

ونهضت فجأة ودفعت ، ثم مشت مسرعة نحو الرصيف وهبطت السلم من جديد . ولم يكن هناك احد بعد يمنعها ، ولا أحد على الرصيف ، ولا على الجسر ، ليس من فضوليين بعد ولا منشرطة ولا رجال أطفاء . وليس ثمة جسد . ان الرصيف لعار . ولقد اختفى كل شيء . ولولم تبق بقعة منماء هناك لخيل للناس أنه لم يحدث شيء .

ترجمة **عايدة مطرجي ادريس**

مذكرات ناريمان

تقص فيها ملكة مصر السابقة حكاية حبها لفاروق وتدلها به على شكل يشبه اساطير الف ليلة وليلة

صدر اخيراً عن دار المكشوف ، **بيروت**

الدمع المر

مجموعة قصص

من صميم الحياة العربية الاجتماعية والنفسية

بقلم الدكتور سهيل ادريس

صدر حديثاً

قريباً : الحي اللاتيني

في طبعته الثالثة